الخلق دليل التحدي :

١ – إن دلالة الخلق في هذا الكون البديع الصنع تؤكد – بما لا يقبل الشك إلا من معاند مكابر – أنه من صنع الله تعالي وحده . إنه على كل شيء قدير .

ومن هنا كان التحدي المطلق بهذا الخلق الإلهي في جنبات الكون . ومن هنا كان قوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل : ١٧ ، مكية) .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (سورة النحل : ٢٠ ، مكية) .

وهاتان الآيتان جاء موقعهما بعد ذكر الكثير من الآيات الكونية والتي كان ختامها ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ .

وفي التحدي أيضاً ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة لقمان : ١١ ، مكية) .

ومن ذلك أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (سورة الحج : ٧٣ ، مدنية) .

وكان الخلق دليل التحدي لأنه يعني : إيجاد الأشياء من العدم المحض على غير مثال سابق وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالي .

إن هذا الخلق الإلهي يتم وفق القدرة الربانية الخلاقة ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (سورة القمر : ٤٩ – ٥٠ ، مكية)

ومن آيات الخلق الكثيرة في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٢١ ، مدنية)

٢ – وأما العناية الإلهية بهذا الكون خاصة وبالإنسان عامة فمظاهرها في القرآن كثيرة أيضاً ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ

السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٢٢ ، مدنية) .

٣ – وأما الهيمنة الإلهية . والتدبير الرباني لهذا العالم ، فإنه لا يقع في ملك الله إلا ما يريده الله " .

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأعراف : ٥٤ ، مكية) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (سورة فاطر : ٤١ ، مكية) .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

ثانياً : الإدراك العقلي

لقد سبق لنا الحديث عن العقل باعتباره من أهم الدوافع الذاتية إلي المعرفة ، ولكنا هنا نتكلم عنه باعتباره وسيلة من وسائل المعرفة التى منحنا الله إياها .

ذلك أن الإدراك العقلي هو الطريق الثاني من طرق المعرفة التى زود الله بها الإنسان . وقد انكشف لنا دور الحواس ، وقيمة المعرفة المستفادة منها ... الخ .

وقبل أن نتكلم هنا عن دور العقل ينبغي أن نتعرف أولاً على طبيعته وماهيته ووظائفه التى يقوم بها . فنقول وبالله التوفيق .

طبيعة العقل :

إن طبيعة العقل وماهيته ومكانه أمور استأثر الله تعالي بعلمها . ومهما كان دور العقل وأثره فإنه عاجز – تماماً – عن إدراك ماهيته ، وكل ما يمكن معرفته عن نفسه يقع في مجال وظائفه ونشاطاته التى يقوم بها ، وهذا هو القدر المطلوب منه ، فلو كانت معرفة ماهيته وطبيعته يتوقف عليها شيء ما لعرفنا الله

بها وكشف لنا عنها ، بالإضافة إلي أن حجب هذه المعرفة عن الإنسان يحد من غرور العقل ، ويؤكد محدوديته مهما كان الأمر .

إن القرآن الكريم يعبر عن العقل تارة : بالقلب والقلوب ، وتارة أخري بالفؤاد والأفئدة أما كلمة " العقل " بذاتها ، فلم ترد في استعمالات القرآن الكريم . مما يؤكد أن معرفة ماهية العقل لا تعني الإنسان في شيء . وإنما الذي يعنيه ويحرص عليه هو معرفة وظائفه ، والقيام بها على الوجه الأكمل ما أمكن .

إن استعمالات القرآن الكريم تدور حول الفعلين : الماضي والمضارع فقط (١) . وهكذا ....

عقلوه ١
نعقل ١
يعقلها ١
تعقلون ٢٤
يعقلون ٢٢

إن هذه التصرفات يسندها القرآن إلي " القلب " وقد يعبر عنه بالفؤاد . أو الأفئدة ، لأن الفؤاد هو القلب . وقد جاء في المعجم الوسيط قوله " الفؤاد : القلب . وفي التنزيل العزيز ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (سورة النجم الآية : ١١) ويقال : هو فارغ الفؤاد لا هم عنده ولا حزن . أو سيء الحال . وبه قال بعض المفسرين في قوله تعالي : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ (٢)

ومن استعمال القرآن للقلب بمعني العقل قوله تعالي : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (سورة الحج : ٤٦ ، مدنية) .

---

١ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة " عقل " محمد فؤاد عبد الباقي .

٢ – المعجم الوسيط ك ج ٢ مادة : فؤاد .

وفي سورة الأعراف ، قوله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ (١٧٩ ، مكية) ، والفقه أعلى درجات الفهم .

في تفسير " غرائب القرآن " وعند قوله تعالي : ﴿ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول النيسابوري " القلب يراد به تارة اللحم الصنوبري المودع في التجويف الأيسر من الصدر ، وهو محل الروح الحيواني الذي هو منشأ الحس والحركة ، وينبعث منه إلي سائر الأعضاء بتوسط الأوردة والشرايين . ويراد به تارة اللطيفة الربانية التي بها يكون الإنسان إنساناً ، وبها يستعد لامتثال الأوامر والنواهي ، والقيام بواجب التكليف ﴿ إن في ذلك لذكري لمن كان له قلب ﴾ (١)

أما الإمام الغزالي فإنه يقول :

" القلب يطلق على معنيين :

المعني الأول : هو اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ... والقلب بهذا المعني لا يتعلق به غرضنا ، وإنما يتعلق بغرض الأطباء .

المعني الثاني : هو اللطيفة الربانية الروحانية ، ولها بهذا القلب الجسماني تعلق وهي حقيقة الإنسان ، والمدرك العالم العارف المخاطب والمعاتب والمطالب .

ويقول عن العقل : وهو أيضاً يطلق على معنيين :

المعني الأول : وهو العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب .

المعني الثاني : هو المدرك للمعلوم . فيكون هو القلب ، أي تلك اللطيفة الربانية " (٢) .

---

١ - تفسير غرائب القرآن على هامش الطبري ج ١ ، بيروت ١٩٨٦ .

٢ - إحياء علوم الدين ج ٣ ص (٣) وما بعدها ، كتاب " شرح عجائب القلب " .

وأياً ما كان الأمر من خلاف في هذا الشأن بين علماء الدين وعلماء التشريح والأطباء فإن الذي يعنينا هنا : أن حقيقة العقل وكنهه أمر لا يعلمه إلا الله تعالي . ولكن في مقدورنا أن نعلم وظائفه التي يقوم بها . وما من شك في أن العمليات العقلية ينعكس أثرها على القلب ، خيراً وشراً ، وقبضاً وبسطاً ، لما لذلك العقل من تعلق بالقلب .

وكذلك يظهر أثرها على المخ وخلاياه ، مما يعني أن ثمة تعلقاً لهذه العمليات العقلية بالمخ والدماغ ، ويظهر ذلك واضحاً في ضغط الدم ارتفاعاً وانخفاضاً .. وغير ذلك من الأمور التي يعرفها الأطباء ، خاصة أولئك المختصون بالمخ والأعضاء .

ويمكن القول بأن القلب يعني الباطن لأن قلب كل شيء باطنه . والقلب والمخ في باطن الإنسان وجوانيته ، والله أعلم بالمراد على التحقيق .

وظائف العقل :

لقد تكلمنا عن العقل – فيما سبق – باعتباره من أهم الدوافع الذاتية التي تدفع الإنسان دفعاً نحو العلم والمعرفة ، بصفة عامة والحقيقة الأزلية الخالدة بصفة خاصة .

ولكنا هنا – نتكلم عن العقل باعتباره وسيلة من أهم الوسائل التي يصل من خلالها الإنسان – بحق – إلي معرفة الحق تبارك وتعالي .

ذلك : أنه من وظائف العقل : الإدراك والتأمل ، والتذكر والتدبر ، والتفكر والتعلم . والحكم على الأشياء ، والأفعال والأقوال والاعتقادات ، بالحق أو بالباطل ، والخير أو الشر ، والصدق أو الكذب ... وهكذا .

وليس ذلك فقط بل من وظائفه أيضا : أنه يناط به الوازع الأخلاقي ، أو المنع عن المحظور والمنكور .

ومن خصائص العقل ملكة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصور .

" ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ، ويقبله على وجوهه ، ويستخرج منه بواطنه وأسراره ، ويبني عليها نتائجه وأحكامه ، وهذه الخصائص في جملتها – تجمعها ملكة الحكم ، وتتصل بها ملكة الحكمة .

" ومن أعلي خصائص العقل : الرشد ، وهو مقابل لتمام التكوين في العقل الرشيد ، ووظيفته الرشد ، فوق وظيفة الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم ، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف ، وعليها مزيد من النضج والتمام ، والتمييز بميزة الرشاد ، حيث لا نقص ولا اختلال : وقد يؤتي الحكيم من نقص في الإدراك ، وقد يؤتي العقل الوازع من نقص في الحكمة ، ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك " .

" وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني ، وبكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها ، فهو يخاطب العقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم ، والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضاً مقتضباً ، بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان " (١) .

ومن هنا أيضاً كان خطاب القرآن إلي العقل بجميع وظائفه التى لها ، وكل خطاب إلي ذوي الألباب – كما يقول العقاد – فهو خطاب إلي اللب ، وهذا العقل المدرك الفاهم ، لأنه معدن الإدراك والفهم في ذهن الإنسان ، كما يدل عليه اسمه في اللغة العربية (٢) .

وقد جاء في المعجم الوسيط " عقل – عقلاً : أدرك الأشياء على حقيقتها ، والغلام أدرك وميز ، يقال : ما فعلت هذا قد عقلت ، وإليه : عقلاً وعقولاً . لجأ وتحصن ، والظل عقلاً ، انقبض وانزوي عند انتصاف النهار ، وعقل الشيء

---

١ – التفكير فريضة إسلامية ص (٨ ، ٩) .

٢ – نفسه ص (١٢) .

أدركه على حقيقته " (١) وأولوا الألباب هم العقلاء الخلص من الناس ، وإلي هؤلاء كان خطاب القرآن الكريم في ستة عشر وصفاً يمكن تصنيفها إلي مجموعتين : هما :

المجموعة الأولي :

يكون الأمر فيها بالتقوى وهي تعني : استشعار الوجود الإلهي في كل شيء ، وكل حال ، في الاعتقادات وفي الأفعال وفي الأقوال ، وفي الحركات والسكنات ، وفي السر والعلانية ، فهم أولي الناس بخشية الله لمعرفتهم به حق المعرفة " .. وفي هذا المجال قوله تعالي : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٩ ، مدنية)

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة البقرة : ١٩٧ ، مدنية)

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة المائدة : ١٠٠ ، مدنية)

المجموعة الثانية :

فيها الأمر بالتذكير والاعتبار ، ومنها قوله تعالي : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (سورة البقرة : ٢٦٩ ، مدنية)

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٩٠ ، مدنية)

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (سورة يوسف : ١١١ ، مكية)

---

١ - المعجم الوسيط ج ٢ ص (٦١٦) .

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة ص : ٢٩ ، مكية)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة الزمر : ٢١ ، مكية) .

طبيعة الإدراك العقلي :

العقل ملكة ربانية مجردة من الشوائب المادية لا يعلم كنهها إلا الله تبارك وتعالي . وهذه الملكة لها تعلق بالقلب والمخ في الإنسان لا يعلم طبيعته إلا الله وحده لا شريك له ، " وهو الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء " (١) .

ولما كان العقل من المجردات فإنه ينزع – بالضرورة – إلي إدراك المجردات ، والمفاهيم العامة ، والقضايا الكلية ، والحقائق الثابتة ، والقيم الإنسانية المطلقة ، ومثال ذلك – في وضوح – كلمة " الإنسانية " فإنها مفهوم كلي عام ، وقيمة مطلقة وهي منتزعة – بالعمليات العقلية – من الواقع المحسوس لأفراد بني الإنسان ، حيث تقوم الحواس بنقل صورها إلي العقل ، فيعمل فيها نشاطه بتجريدها من كل الشوائب الحسية المتعلقة بها ، وبنتزع القدر المشترك من بينها ، والذي يصدق على جميع أفراد البشر .

العقل – إذن قادر على إدراك المجردات فيما وراء المادة من حيث المبدأ لا من حيث حقيقتها وطبيعتها ، فإن ذلك لا يعلمه إلا الله ، وللعقل في ذلك طريقتان :

الأول : الخبر الصادق عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي ، ومن هذا القبيل الإيمان بالملائكة .

---

١ – الإحياء : ج ٣ ص (٣٩) ، د / عبد الحليم محمد ، طبعة ١٩٧٤ م .

الثاني : الإدراك الحسي للآثار المادية الناتجة عن هذه المجردات كالروح في الإنسان ، فإننا لا ندركها بذاتها مباشرة ، ولكن بآثارها ومظاهرها في الجسم الذي ينبض بالحياة .

ومن هنا ، فإن العقل بواسطة إدراكه لهذا العالم البديع الصنع لا يجد ثمة مشكلة في معرفة خالقه – عز وجل – لأنه ينطلق نحو وجوده وسر حياته ، كما يترجم عن فطرته التى طبع عليها وغايته التى خلق لها . ولهذا يدرك العقل – بيقين – أن ما يتمتع به الكون من تناسق وحداته ، وانسجام عناصره ، وما يقوم عليه من ضبط وتوازن ، كل ذلك لا يمكن أن يكون قد وجد عبثاً ، أو هكذا اتفاقاً وصدفة ، أو عن مادة صماء لا تعقل ، بل إن وراءه حقيقة أزلية خالدة ، وقدرة خلاقة مبدعة ، تحكمه وجوداً وعدماً ، ورعاية وعناية ، وهيمنة وتدبيراً " **﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾** (سورة النمل : ٨٨ ، مكية) .. " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " (سورة الأنبياء : ٢٢ ، مكية) .

نخلص من ذلك إلي أن جميع صور الاستدلال – التى انطلق بها العلماء والمفكرون إلي الله تعالي – ترجع كلها إلي الإدراك الحسي مهما اختلفت طبائعها ، وتباينت مظاهرها :

سواء في ذلك الشعور النفسي عند سقراط .

أو الحركة والنظام عند أفلاطون .

وسواء في ذلك السببية عند أرسطو .

أو الحدوث عند المتكلمين .

أو الإمكان عند الفلاسفة المسلمين .

أو معرفة الذات عند ديكارت .

أو الدليل الوجودي عند ليبنتز .

أو الدليل الأخلاقي عند كانت .

أو الاستدلال بالخالق على الخلق كما هو الحال عند الصوفية .

إن العقل في كل من هذه الاستدلالات يعتمد على الإدراك الحسي من قريب أو بعيد ، ولنضرب لذلك مثالاً للتوضيح والبيان .

لقد اشتهر الفلاسفة المسلمون بدليل " الوجوب والإمكان " وهو دليل الفارابي ، أخذه عنه ابن سينا ، وهذا الدليل اشتهر بأنه طريق المعقولات المحضة ، وأساس هذا الدليل – كما يقول الفارابي – " أن الموجودات على ضربين :

أحدهما : إذا اعتبرت ذاته لم يجب وجوده ، ويسمي ممكن الوجود

والثاني : إذا اعتبرت ذاته وجب وجوده ، ويسمي واجب الوجود .

وممكن الوجود هو : ما استوي في أمره الوجود والعدم ، فلا غني إذن لوجوده عن علة .

وهذه العلة : إما أن تكون ممكنة فلا بد لها من علة ، ولا يجوز في الأشياء الممكنة " أن تمر بلا نهاية في كونها علة ومعلومة ، ولا يجوز كونها على سبيل الدور ، بل لابد من انتهائها إلي شيء واجب هو الموجود الأول . وذلك هو الله تعالي " (١) .

واضح أن هذا الدليل منتزع من الواقع المحسوس لهذا العالم ، فهو متغير من الوجود إلي العدم وبالعكس وهذا هو شأن الممكن الذي استوي طرفاه : الوجود والعدم فيه سواء من حيث ذاته ، ويستحيل ترجيح أحد طرفية على الآخر بلا مرجح ، هنا يعمل العقل عمله ، فاهتدي إلي فكرة " واجب الوجود " الذي

---

١ – التفكير الفلسفي في الإسلام ص (١٣٦) ج ٢ ، د / عبد الحليم محمود . ط ١٩٧٤ ، نقلاً عن الفارابي " في عيون المسائل " .

وجوده من ذاته بالنظر إلي ذاته وهو دائم الوجود لا يلحقه تغير ، ويستمد منه كل موجود وجوده حقاً وإبداعاً وهيمنة وتدبيراً .

العقل إذن عن طريق الإدراك الحسي قادر على الوصول إلي الحقيقة من حيث المبدأ ، وبالجملة أما وراء ذلك مما يليق بتلك الحقيقة الأزلية من صفات الجلال والكمال والأفعال فلا تعلمها إلا بوحي من الله تبارك وتعالى ، ولنا في ذلك دليلان :

الدليل الأول : لقد وصل أرسطو (١) – على سبيل المثال – إلي معرفة الله عز وجل ، وأطلق عليه عدة أسماء : المحرك الأول ، المحرك الذي لا يتحرك ، العلة الأولي ، علة العلل ، منشأ الكائنات :

ولكن حينما انطلق يتكلم عن تنزيه إلهه – الذي تبين له : أنه " بالضرورة جوهر دائم غير متحرك " – اعتبره لا يعلم العالم ولا يعني به فإن من الأشياء ما عدم رؤيته خير من رؤيته . الوسيلة إذن نبيلة لكن الغاية قبيحة لأنها نقص والنقص على الله تعالي محال .

الدليل الثاني : ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن حجر ، عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي – (ﷺ) – يا محمد أنسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالي : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (سورة الإخلاص) .

قال ابن كثير : " قال : عكرمه : لما قالت اليهود نحن نعبد عزير بن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح بن الله ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقال المشركون : نحن نعبد الأوثان ، فأنزل الله على رسوله (ﷺ) : : قل هو الله أحد ..... " (٢) .

---

١ – تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص (١١٧) وما بعدها ، يوسف كرم ط ٦ .

٢ – مختصر تفسير ابن كثير : ج ٣ .

وفي النهاية نؤكد على أن الصورة العقلية ، والمفاهيم الكلية ، والقضايا المجردة التي ينتهي إليها العقل ليست محسوسة ، ولا موجودة في الواقع المحسوس ، وإن كان انتزاعها من الواقع ، فإن طبيعتها المعقولة اقتضت تجريدها من كل شائبة حسية .

يقول الكندي ، فيلسوف العرب .

" والأشياء إما كلية وإما جزئية فالكلي هو الأجناس للأنواع ، والأنواع للأشخاص " .

والجزئي هو " الأشخاص للأنواع والإدراك الحسي هو جزئي باستمرار .

أما الإدراك العقلي : أي إدراك الأجناس والأنواع ، فإنه واقع تحت الحواس ، وليس موجوداً حسياً ، وإنما إدراكه يكون بواسطة قوة في النفس التامة " أعني : الإنسانية ، هي المسماة والعقل الإنساني " .

وهذا النمط من المعرفة ليس متمثلاً في النفس ، وليس صورة تحتفظ بها الحافظة ، ذلك أن الذي يتمثل للنفس إنما هو المحس ، والإدراك الكلي إنما هو تجريد وطرح للأعراض الزائلة المختلفة المتغيرة ، واستبقاء للمشترك العام .

فحينما ندرك معنى الإنسانية ، فإن ذلك بتجريدها عن اللون مثلاً ، عن الطول والقصر ، وعن السمنة والنحافة ، ويتبقى بعد هذا التجريد الحيوانية والناطقية وهما القدر المشترك العام بين جميع أفراد الإنسان ، والإنسانية – إذن – قد جردت من كل ما هو محس – لا صورة لها تتمثل في الذهن " (١) .

وإذا كان العقل قادراً على معرفة الله تعالى من غير وحي ، فإنه قادر – كذلك من باب أولى – على معرفته تعالى معرفة كاملة من خلال فهم الوحي –

---

١ – التفكير الفلسفي في الإسلام ص (٨٣) ج ٢ بتصرف من أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود .

يقول أخونا الأستاذ الدكتور "محمود زقزوق" هنا يبرز السؤال عن العلاقة بين العقل والوحي . أي السؤال عن كيفية الوصول إلي معرفة حقيقة الوحي القائم ، وعما إذا كان للعقل دور يستطيع القيام به ، أو أن حقيقة الوحي يجب أن تؤخذ بمعزل عن العقل ، عن طريق اعتقاد مجرد لا مجال فيه للتفكير ؟

" ويجيب الغزالي على ذلك : بأن مهمة العقل هي أن يقود إلي معرفة وجود الله ومعرفة وحيه ، ويرفض هنا – بوضوح – الرأي الخاطئ الذي يذهب إلي أن العقل مجرد المنطق والجدل ، ويبين أن رفض العقل من جانب بعض الصوفية يقوم على هذا الرأي الباطل" (١) .

ولما كان الوحي من الله ، والعقل – كذلك – مخلوق لله ، فإنه – والحال هكذا – يصبح من الطبيعي أن يكون للعقل دوره في فهم الوحي ، وهذا ما أكده الوحي الإلهي ، فهو لا يحجر على العقل ، ولا يلغي دوره في فهم النص ، بل يدع له مجالات رحبة يغوص فيها ويصول ويجول طالما توافرت له شروط الاجتهاد المعقول .

في هذا يقول الشيخ يوسف القرضاوي " إن وجود النص الإلهي المقدس ليس عائقا للعقل عن التحليق والإبداع ، فقد ترك الوحي للعقل مجالات عديدة يثبت فيها ذاته ، ويبرز قدراته .

لقد ترك للعقل أموراً كثيرة في مجالات متعددة :

أ – ترك للعقل في مجال العقيدة أن يهتدي إلي أعظم حقيقتين في هذا الوجود :

الحقيقة الأولي : وجود الله ووحدانيته – فوجود الله – كما تهدي إليه الفطرة السليمة ، يقتضيه – كذلك – النظر الصحيح والعقل الصريح.

---

١ – المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ص (٢٠٠)

الحقيقة الثانية : ثبوت الوحي والنبوة والرسالة ، فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك . ووقوعه بالفعل ، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله .

العقل هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية ، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحي . إذا كيف يستدل بما لم يثبت بعد .

ولهذا قال علماء الإسلام : العقل أساس النقل ، وذلك أن العقل – بعد اقتناعه بوجوده – تعالي – وكماله سبحانه – يعلم أن من تمام حكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدي ، وألا يدعهم في لجي من الجهالة والعمي والغي . وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلي النور عن طريق مبلغين عنه .

والعقل بعد أن يعلم ذلك لا يسلم لكل من ادعي أنه رسول من الله بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه ، وأنه يمثل نفسه ، وإنما يمثل إرادة الله الذي أرسله . فيطالبه بالآية المعجزة التى لا يقدر عليها إلا الله تعالي .

ب – وترك الوحي للعقل في مجال التشريع أن يصول ويجول في فهم النصوص فيفرع على الأصول ، ويقيس على الفروع ، ويستنبط الأحكام ، ويكيف الواقع ويرعي القواعد في جلب المصالح ، ودرء الفاسد ، ورفع الحرج ، وتقدير الضرورات بقدرها ، واعتبار العرف ورعاية الزمان والمكان .

ج – وترك للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه في كثير من الأعمال التى يلتبس فيها الخير بالشر ، ويشتبه الحلال بالحرام ، ولم يغفل شأنه بجانب الوحي كمصدر للإلزام الأدبي ، ومقياس للحكم الخلقي .

د – ثم ترك للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا الكون العريض ما شاء صاعداً إلي الأفلاك ، وهابطاً إلي الأرض ، ومتأملاً في النفس ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ .

و – وترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين ، وينتفع بتراث السابقين ومعارف اللاحقين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار (١) .

هذا هو العقل ، تلك الهبة الربانية التى بها القدرة على الإدراك والتأمل والتفكير والرشد والحكم ، وكذلك القدرة على إدراك المفاهيم العامة المجردة المنتزعة من الواقع ، أو بعيداً عن الواقع المحسوس فيما وراء المادة على وجه العموم ، والحقيقة الأزلية المطلقة على وجه الخصوص ، الحق تبارك وتعالي : ﴿ الذي له مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ....﴾ .

ثالثاً : الإدراك الإشراقي

لقد اتضح لنا : أن المعرفة التي نحصل عليها من خلال العقل معرفة كسبية نحصل عليها بالتعليم ، ونصل بها إلي الله تعالي من حيث المبدأ ، وبالجملة على نحو ما أوضحناه من قبل ، ولكن من الناس من لا يقنع بهذا الطريق ، ويطمع في المعرفة المباشرة الكاملة عن طريق الرياضة الروحية ، والمجاهدات النفسية ، فهو تجربة شخصية ، والمعرفة فيه وهبية لا كسبية .

يقول الإمام الغزالى :"الطريق : تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالي ، مهما حصل ذلك كان الله المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولي الله أمر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية،فإذا ما حصل ذلك كانت المشاهدة" (٢) .

هذا هو الطريق الإشراقي البصيري الروحي ينفتح من خلاله الصالحون من عباد الله على الملأ الأعلي فينكشف لهم ما لا ينكشف لغيرهم من عباد الله .

---

١ – الخصائص العامة للإسلام ص (٥٦) وما بعدها باختصار ، د / يوسف القرضاوي – مكتبة وهبه بالقاهرة ، ط ٢ (١٩٨٢ م) .

٢ – المنقذ من الضلال ص (١٦٧) .

وهو طريق المحققين من الصوفية وهم أولياء الله الذين آمنوا ووالوه ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية " فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضي ، سخطوا بما يسخط ، وأمروا بما أمر ، ونهوا عما نهي ، وأعطوا لمن يجب أن يعطي ، ومنعوا من يجب أن يمنع ، كما في الترمذي وغيره عن النبي (ﷺ) أنه قال : " وأوثق عري الإيمان : الحب في الله والبغض في الله ، وفي حديث آخر رواه أبو داود قال : من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطي لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان " (١) .

إن الطريق الصوفي مقيد بالكتاب والسنة ، كما يقول الجنيد سيد هذه الطائفة " من لم يحفظ القرآن ولم يكتب السنة لا يقتدي به في هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة " (٢) .

ومن هنا يتضح أن التصوف الصحيح لا يسقط العقل والعلم والتفكير من الحساب ، وكتب الصوفية الكبار تنطق بذلك وتؤكده وتحث عليه ، يقول أخونا الدكتور محمود زقزوق " إنه عن طريق العقل يمكن استيفاء الشروط الأساسية الثلاثة للحصول على المعرفة الصوفية ، وفي ذلك يقول الغزالي : " اعلم أن العلم اللدني – وهو سريان نور الإلهام – يكون بعد التسوية كما قال الله تعالي : ﴿ ونفس وما سواها ﴾ .

وهذا الرجوع يكون بثلاثة اوجه : –
أحدها : تحصيل جميع العلوم ، وأخذ الأوفر منها .
والثاني : الرياضة الصادقة .
والثالث : التفكير .

" فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ، ثم تتفكر في معلوماتها بشروط التفكير ينفتح عليها باب الغيب ... فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من

---

١ – مجموع الفتاوي ، كتاب التصوف ص (١٦٠) ج ١١ .
٢ – الرسالة القشيرية ص (٢٥) .

ذي الألباب وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه ، فيصير عالماً كاملاً ملهما مؤيداً " (١) .

المعرفة الإشراقية ممكنة :

إن هذا النوع من المعرفة الإشراقية الروحية ممكن الوقوع ، ويري الإمام الغزالي أن الدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضا في اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسات .

والثاني : إخبار الرسول (ﷺ) عن الغيب وأمور في المستقبل ، وإذا جاز للنبي (ﷺ) جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف ولا يشغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمي نبياً بل يسمي ولياً .

فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه – لا محالة ان يقر بالبصيرة ، أو بتعبير آخر أن يقر بباب القلب ينفتح على عالم الملكوت ، هو باب الإلهام ، والنفث في الروح والوحي .

ويؤكد الإمام الغزالي ذلك بشواهد الشرع من القرآن الكريم مثل قوله تعالي : ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً** ﴾ قيل نوراً يفرق بين الحق والباطل ، ومن السنة قوله (ﷺ) : " من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم " وسئل (ﷺ) عن قوله تعالي : ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة : إن النور إذا قذف به

---

١ – المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ، ص (١٩٤) .

إلي القلب ، اتسع له الصدر وانشرح ... وقال عليه الصلاة والسلام : " إن من أمتي محدثين ، ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم " (١) .

ويؤيد هذا أيضاً قوله تعالي : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٨٢ ، مدنية) .

وكذلك قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام وفيها قوله تعالي : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف : ٦٥ ، مكية) .

هذا هو العلم اللدني ، وهذا هو طريقه ، وتلك غايته التى يعبر عنها الغزالي بقوله : " ولم يكن ذلك بنظم دليل ولا ترتيب كلام ، بل بنور يقذفه الله تعالي في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة : (٢) .

الوحي الإلهي

لقد انكشف لنا – مما سبق – أن المعرفة بالله عن طريق العقل ناقصة فهو يصل إليها من حيث المبدأ وبالجملة وليس بالتفصيل ، كما أن المعرفة الإشراقية تجربة شخصية ، لا يقدر عليها سوي الصالحين من عباد الله رب العالمين .

ولهذا ولغيره ، اقتضت حكمة الله تعالي أن يكشف للإنسان عن المنهج القويم ، المعصوم من الخطأ ، والذي يهدي – بحق – إلي التى هي أقوم في الدنيا والآخرة .

من هنا كانت الرسالات الإلهية ، والوحي الإلهي ، ومسك الختام في القرآن الكريم ، تنزيل من رب العالمين ، ولا ريب فيه هدي للمتقين.

---

١ – الإحياء ج ٣ ص (٣) وما بعدها .

٢ – المنقذ من الضلال ص (٨٥) .

وفي السنن للدرامي – كتاب فضائل القرآن – عن على كرم الله وجهه قال : إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : " ستكون فتن ، قلت : ما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغي الهدي في غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ هو الذي من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدي إلي صراط مستقيم " (١)

لقد جاء القرآن الكريم بالمعرفة الربانية الكاملة لكل ما ينبغي على الإنسان أن يعرفه حق المعرفة ، فيالله وفي الإنسان ، وفي الكون والحياة.

إن الحديث عن القرآن لا ينتهي ، ولا يخلق عن كثرة الرد والنظر ، ولا تنقضي عجائبه .

بين الوحي والعقل :

وحسبنا في هذا المجال ، مجال المعرفة أن نشير إلي مدي احترام الوحي للعقل الإنساني – فالعقل من الله ، والوحي من الله ، ومن هنا لا يتعارض العقل الصريح والوحي الصحيح في شيء ، وإذا ما ظن امرؤ أن هناك تعرضاً بين العقل والوحي ، فإن ذلك يرجع إلي تقصير في الفهم ، أو جهل في التعامل مع الوحي .

إن علماءنا أدركوا هذه الحقيقة ، ونبهوا عليها ومن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، الذي وضع كتاباً كبيراً في ذلك بعنوان : درء تعارض العقل مع النقل " أو موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول " .

---

١ – سنن الدرامي ص (٨٣١) ج ١٩ من كتب السنة .

ويقول الإمام الغزالي في العلاقة بين العقل والشرع إنها " علاقة الأساس بالبناء – فالعقل أساس ، والشرع بناء ، ولن يغني أساس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء بغير أساس ، وقصارى أمر العقل أن يعرف الأمور الكلية كحسن الصدق ، والعفة ، والعدل . وغير ذلك " بل يذهب الغزالي إلي أكثر من ذلك فيقول : " الشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، هما متعاضدان بل متحدان " (١) .

وعلى ضوء هذا يقرر الإمام : أنه لا غني بالعقل عن السماع ، ولا غني بالسماع عن العقل،فالداعي إلي محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل دون أنوار الشرع والسنة مغرور (٢) .

وفي رسالة التوحيد للإمام محمد عبده يقول : " تأخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل" .

وتقرر بين المسلمين كافة – إلا من لا ثقة بعقلة ولا بدينه ، أن متن قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن طريق العقل ، كالعلم بوجود الله . وبقدرته على إرسال الرسل ، وعلمه بما يوحي به إليهم ، وإرادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معني الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها .

كما أجمعوا على : أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل " (٣) .

يتضح من هذه كله مدي التطابق بين العقل والوحي ، ولكن ما هي المبادئ التي يقوم عليها هذا التطابق ؟

---

١ – معارج القدس ص (٦٠) ، طبعة الكردي .

٢ – المرجع السابق .

٣ – رسالة التوحيد ص (٤٥) دار إحياء العلوم ، بيروت ط ٥ سنة ١٩٨٥ .